ضرر الا ويكون له من حيلتهم دافع . واما الخوف كل الخوف فانه في بلادنا وحدها لان فتياتنا قد تحررن الان بشيء من العلم دون ادنى شيء من الصناعة حتى الصناعة النسائية ولكن تلك الحرية قد منعت عنهن خير الزواج لخوف الرجال من حالتهن المضطربة ومنعت منهن خير الاستفادة والاستقلال لانهن لا يدرين من الصنائع الهامة شيئاً ولهذا كانت احوالنا الحاضرة اشد من حالة اوروبا ونحن اولى منها بالشكوى بل لقد صرنا لا ينفعنا الا الرجوع الى حالة الجهالة القديمة او الاسراع للبلوغ الى حالة اوروبا الحاضرة مما بعد الضرر فيها مواجهاً للنفع والخطاء مقابلاً للصواب

اميال المرأة

لم يكثر الناس من الظن والتخمين في حالة من الحالات مثل اكثارهم الظنون في اخلاق المرأة وطباعها وما تميل اليه من اخلاق الرجال وحالاتهم وما تنفر عنها . ولقد اشتد ذلك حتى ندر ان يتفق اثنان على وصف المرأة وصفاً واحداً من حيث اميالها الى الرجل فان منهم من يدعي انها لا تميل الا الى المال دون ان يهمها من الرجل حسن او قبح او كبر او جهل ودليلهم في ذلك ما يجدونه من كثرة تزوج الفتيات الصغيرات بالاغنياء الكبار المعمرين ومنهم من يزعم ان المحاسن ذات سلطان عظيم عليها وان الشباب اعظم شفيع لديها وهذا مذهب الشعراء ودعواهم . ومنهم من يقول بل المرأة لا يهمها من الرجل الا مروءته وفتوته ومحاسن اخلاقه واكتمال صفاته وهو رأي يطلق اطلاقاً من

حيث ايثار كل الناس لهذه المحاسن وشعورهم بتفضيلها . ومنهم من يرى ان المرأة مادية محضة لا يهمها الا شباب الرجل وماله دون نظر الى اخلاقه وعواطفه ومبلغ عقله وحذقه

ولكن كل هذه المزاعم انما ترسل ارسالاً من عند الظن وتبعث من تلقين الضمير دون برهان عليها سوى ما يبدو من بعض النساء وميلهن لتلك الاوصاف . ولكن الحقيقة الشائعة في مجموعهن لا تزال مجهولة من كل الرجال بل من النساء انفسهن حتى اصبحت حقيقة المرأة انه لا حقيقة لها او ان كل وصف يصدق فيها وكل حالة من حالات الرجل توافقها وتجد هوى في فؤادها

ولقد عثرنا في احدى الصحف الاجنبية على مقال لاحدى النساء في شأن ما يرضي المرأة من اوصاف لرجل فرأينا نقل معناه من قبيل الفكاهة او التنبيه لهذا الموضوع الدقيق الذي قلّ ان يصيب به كاتب واحد لعدم الاستقرار عليه من الجميع كما قلنا

فلقد ذكرت تلك المرأة ان جمال الرجل ومحاسنه البادية على وجهه وملابسه قلما تعد جوهرية لدى المرأة بل هي عندها مما يشبه الزينة التي قد يستغنى عنها وان الجمال في نظرها لا يعتبر الا كتمهيد ومقدمة لارضاء المرأة وسرورها من الرجل دون ان يعتبر من النتائج النهائية الموصلة الى الحب والايثار المحض . ومن رأي تلك القائلة ان حسن السيرة في الرجل او حسن اسلوبه وطريقته في الحديث والعشرة هو من اهم ما يؤثر في نفس المرأة وقد استشهدت على ذلك بقول تصدقه عن احد المشاهير في قبح الوجه ودمامة المنظر وهو قوله انني في حسن تلطفي ورقة حديثي ووفور حيلتي استطيع ان ابلغ من فؤاد كل امرأة ما لا يبلغه اجمل شاب وابهى فتى

ومما تدعيه تلك الكاتبة ان المرأة لا يروق لها تحلي الرجال ولا يحلو في عينها تزينهم بل انها لا تطيق النظر الى الرجل الذي يقلدها في الشأن الذي اختصت به ولكنها تنظر اليه نظرة الحاسد الكاره كما تنظر الى كل امرأة مثلها تكون متزينة زينتها. الا انها مع كل هذا لا تحب من يبالغ في اهمال ملابسه حتى يبدو لها بمنظر شائن غير مقبول . على انها اذا وجدت الرجل المهذب الحاذق بادياً في ملبس لا ترضاه فقد يهون عليها احتماله او يكون له نصيب من ودها على خلاف الرجل السيء الخلق الفاسد الطبع فانه لو بدا من ملابسه في احلى ما يروق باعين النساء وسراهن لما كان له اقل عناية من المرأة على انها تنفر منه نفورها من الزائد في تأنقه المغالي في بيان محاسنه

ولقد تميل المرأة الى اشد الناس قبحاً الا البخيل فانه لا سبيل له الى قلبها مهما بلغ من الجمال واتصل الى حسن الظواهر بل انها تكرهه كرهاً ما بعده كره لانه ليس اقبح لدى المرأة في اعتبارها من رجل لاهم له من دنياه الا جمع الدرهم الى الدرهم ولا ابعد عن فؤادها من رجل يقدر ثمن كل شيء قبل ان يشتريه ولا سيما حين يكون ذلك لها لان المرأة تحب منتهى التزين والعبث بكل ما يحلو لها فلا تطيق ان ترى رجلاً يدقق معها في الحساب ولا سيما حين يكون ما يشتريه منصرفاً اليها

ومما ذكرته من محاسن الرجل في نظر المرأة هو ان يكون سليم الذوق حسن التخلص في المواقف الدقيقة رقيق الشعور في محبة النساء بعيد النظر في مطالب المرأة مهما بلغت من قلة الاهمية وذلك لانه ليس لدى المرأة شيء لا يكون مهماً بل ان ادنى ما يبدو للرجل حقيراً لا يحفل به قد يكون من اشد ما تهتم به المرأة وتميل اليه

ثم ان المرأة مولعة بالاسرار حتى لقد تموت ان لم يكن في فؤادها سر كيف كانت اهميته فهي دائمة التفتيش عن كل سر فاذا شاء الرجل ان يكون معنياً به من المرأة دائماً ودادها له فلا ينبغي ان يكشف لها كل ما في فؤاده من المخبآت بل هو اذا لم يكن لديه ما يستره عنها فليوهمها ايهاماً بان هناك سراً وعندها ترى دائمة التطلع اليه كثيرة الاهتمام به حتى لقد ينسيها ذلك كل محاسن الوجه والشباب والمال وحسن العشرة ولطف الصحبة بل يقال ان هذه الحالة هي من اشد ما يربط قلب الرجل بامرأته ولولاها لما كان ائتلاف بين زوج وزوجة

هذا الذي ذكرته تلك الكاتبة عن اخلاق النساء واميالهن وما يهوينه من الرجال ولكن هذا النظر انما هو نظرها وحدها وقد لا يشاركها فيه من النساء الا من يتفق ان تكون مشاكلتها في الطبع والخلق ولهذا لا يعتبر صحيحاً حين الحكم على الجميع ولو كان اكثره صادقاً من حيث ما ينبغي ويؤثر . بل ان هذا القول اذا عد صادقاً كله فانما يصدق على المرأة وهي في حالة معينة وسن معلوم ولكنه من المحال ان يكون صادقاً بالكل لاختلاف الاعمار وتفاوت المراتب بالغنى والفقر وهو ما يقضي بالتفاوت الشديد بين آمال امرأة وامرأة ولهذا لا يسلم بما قالت الا من قبيل التقريب فقط

اما ايثار المرأة لقبح الرجل الحسن الخلق الرقيق الصحبة على الجميل الوجه الجافي الطباع فما يجب ان يكون هكذا لان الحسن عرضي والخلق جوهري ولكن هذا الشعور غير عام لكل النساء حتى فضلياتهن والعاقلات منهن فقد روي عن احدى النساء المهذبات من العرب انها تمنت ان ترى ابا العيناء الفاضل المشهور فلما رأته تجهمته لقبح صورته فسألوها في ذلك وقالوا

لها هذا ابو العيناء وهو هو في كل علم وادب فاجابتهم انني لا اريده لولاية الديوان اي انها امرأة يهمها من الرجل ما يبدو من محاسنه فاذا كانت تلك الفاضلة على هذا الاعتقاد فقد ارتد كل قياس لان كثيرات من فضليات الافرنج الان يتعشقن عظماء الرجال تعشقاً ويكن فتيات ويتمنين لو تزوجوهن ولو كانوا طاعنين في السن وكثيراً ما قرأنا ذلك عنهن في الجرائد

اما تأثير حسن الرجل بالمرأة فمما لا يجب نكرانه ولو كان الحسن عرضياً كما نقول لان كل هؤلاء الناس يعيشون متعلقين بالاعراض وندر جداً من همه جوهر الشيء وذاتيته . ومما يذكر عن تأثير المحاسن ان كثير عزة (فيما نظن) كان يقول لمحبوبته عزة انني ما رأيت مصعب بن الزبير يتخطر مرة في البلاط الا اخذتني الغيرة عليك يريد بذلك ان مصعباً جميل الطلعة وانه قد يفتتن عزة فاذا كان كثير قد خشي على عزة من فتنة المحاسن وهو وهي كتوأمين من شدة الالتزام والتقرب فكم يكون الظن في غيرهما

وعلى الجملة فان كل مايقال عن اميال المرأة وما للرجل بها من المؤثرات انما ينقل كله من قبيل الفكاهة كما قلنا وليس من قبيل ايراد الحقيقة وذلك ليس لان طباع المرأة غريبة نادرة كما يزعمون او انها ترغب فيما لا يرغب فيه كما يتهمها الكارهون لها المتحاملون عليها بل لان هذه التأثيرات تختلف باختلاف عمرها ومبلغ اقتدارها ومقدار منزلتها من المجتمع الانساني والمكان الارضي وليس هذا الاختلاف بالمؤثر بها وحدها بل هو مؤثر بالرجل ايضاً فان الرجال على ما يبدو من تشابههم في اكثر الاخلاق والطباع لا يكاد يتفق واحد منهم مع الآخر على اعتبار المؤثرات من محاسن المرأة ومقابحها

بل ترى هذا يهوى الجمال من حيث بياض البشرة وهذا يهواه من حيث تناسب الاعضاء وذاك يؤثره من جهة الشباب وجودة الصحة والآخر من جهة المال او علو القدر ولذلك قلّ ان تمر امرأة برجال ويتفق عدة منهم على حالة واحدة يعتبرونها فيها حسناً . بل ان الجمال وتأثيره في النفوس كيف كان في وجه او ملبس او حالة مما حير افكار الفلاسفة منذ القديم حتى لم يهتدوا منه الى حقيقة . ولعل اصدق تعريف يقال فيه ما ذكره علامتنا المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي وهو قوله

عين قد استحسنت مرأى فطاب لها والله يعلم سر العين في الصور

اما تأثير الحالات والاخلاق في النفس وقيامها مقام الجمال الحسي المعروف فمما حير الناس أيضاً حتى لا يدري احد منهم اي حالة يبديها ليرضي بها واية حالة تبدو له ليسر منها . وما اصدق في هذا المعنى ماقاله أيضاً علامتنا المشار اليه

ومن في الناس يرضي كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيدُ

حيرة شاعر

ياليتني كنت طبيباً ماهرا ولم اكن بين الانام شاعرا
الشعر لا يشفي الفتى من علة ولا يروي نفسه من غلة
لقد بدا لي انني مفتون وانني في نظمه مغبون
ياضيعة العمر الذي اوقفته عليه والمال الذي انفقته